الفهارس والبيبلوغرافيات كأدوات بحث في المخطوطات الجزائرية

Indexes and bibliographies As research tools in Algerian manuscripts

أ.د محمد صاحبي

sahbi.mohamed@univ-oran1.dz

جامعة وهران1

تاريخ الاستلام: 2024/12/17 تاريخ القبول: 2025/01/26 تاريخ النشر: 2025/05/15

ملخص: لا تعتبر الفهارس والبيبليوغرافيات المنجزة من لدن العلماء والفقهاء المسلمين أو المستشرقين، مادة علمية خصبة في سبر أغوار المخطوط عموما والجزائري منه على وجه الخصوص وحسب، بل إنه أداة بحث ضرورية للمشتغلين في حقل المخطوطات. ذلك أن ما يمكن أن تُقدمه من معلومات عن المؤلفين والنسّاخ وظروف إنجاز أعمالهم، الثقافية والاجتماعية والسياسية، يُسهم إسهاما كبيرا في عملية التحقيق والتصنيف على حدّ سواء.

كلمات مفتاحية: الفهارس، البيبليوغرافيات، المستشرقون، أداة بحث، المخطوط.

Abstract:

The indexes and bibliographies developed by Muslim scholars and jurists or orientalists are not only considered fertile scientific material for the exploration of manuscripts in general and Algerian manuscripts in particular, but they also constitute a necessary research tool for those who work in the field of manuscripts. Indeed, the information that these research tools can provide about authors, scribes and the cultural, social and political circumstances of the accomplishment of their work contributes significantly to the process of manuscript authentication and its classification.

Keywords:

Index; orientalist bibliographies; research tool; manuscript; Algeria

مقدمة

باعتبارها آثارا مادية ومعنوية، تلعب المخطوطات دورا رياديا في إعادة بناء التاريخ الثقافي والعلمي للمجتمعات. وعلى هذا الأساس خصصت لها الهيئات العلمية في الدول المتقدمة مكانة متميزة، بحيث وضعت كل التدابير المادية والعلمية والتشريعية من أجل الحفاظ عليها من التلف أو السرقة. وشيّدت لها مخازن خاصة متميزة بنمط يجعلها بمنأى عن الحرائق والسرقات. وشرّعت في قوانينها بنودا، يعتبر سارقها أو تالفها مجرما في حق المجتمع والإنسانية جمعاء.

تشير بعض المصادر التاريخية الفرنسية عن وثائق حرّرها كُتّاب جيش الاحتلال الفرنسي غداة احتلال الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومقالات مبثوثة بالدوريات التاريخية–الجغرافية مثل "المجلة الإفريقية" و"لبيكا" وتقارير رسمية لضباط ومستشرقين فرنسيين، أن ما تمّ جمعُه من مخطوطات ووثائق من مكتبات المدن الجزائرية وزواياها وشوارعها يكاد لا يعد ولا يحصى. وليس ذلك وحسب، بل اندهش هؤلاء الكتّاب أمام تنوعها وجمال تجليدها؛ فقد اعترف البارون دي سلان الذي كتب تقريرا عن المكتبات بقسنطينة أن بعض المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة وأن في هذه المخطوطات نوادر فذة في موضوعها. وضرب على ذلك مثالا بمكتبة "عائلة الفكون" الذي قال عنها أيضا شارل فيرو:" أنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط بل حتى بالكتب المتعلقة بالبلاد الإسلامية المجاورة.[1]

وعلى الرغم مما يمكن أن يُقال عن دور هذه الزوايا والمساجد الجزائرية آنذاك، فإنها كانت طيلة قرون الحاضنة للعلم الإسلامي (من فقه وسيرة لغة وغيرها) وأرضية تنطلق منها نحو البلدان الإفريقية المجاورة..

[1] أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي ج1 بيروت: دار الغرب الإسلامي 1998،ص 287(عائلة الفكون من العائلات المتميزة في نظر العثمانيين وكانت لها خطوة غذ مكنتها من وظيفة شيخ الإسلام ولقد تنافست مع عائلة ابن باديس وقتذاك علميا وسياسيا وأيضا في الريادة الروحية...للمزيد من المعلومات أنظر المصدر نفسه ص 394 و419.

-Francis LALOE« autour de l’incendie de la bibliothèque d’Alexandrie..» in Revue africaineوأنظر أيضا .N-66,1925P103

لقد أنتجت هذه المراكز حركة كبيرة في إنتاج أو إعادة إنتاج المعرفة- وإن كانت على نسق ماضوي- وسمحت ببروز حركة نشطة أخرى، ممثلة في صناعة المخطوطات.. ومن ثمة وضع سلعة ذات قيمة يُمكن أن تُتبادل في شمال إفريقيا وجنوبها، لتكون إحدى صُور المسالك والطرقات التي تسمح بعبور وتبادل الأفكار والأذواق مع تلك المناطق..

ولما كان انتقال الكتاب المخطوط، أي المعرفة، مقترنا بانتقال حامل هذا العلم من مكان إلى آخر في هذه المنطقة الشاسعة، لا يُفاجئ المرء، حينما يُدرك أن العديد من هذه الشخصيات العلمية والدينية، قد وُلدت وترعرعت في بيئة ودُفنت في أخرى، بعيدة عنها من حيث المكان، لكنها قريبة من حيث الوجدان..

والأمثلة على ذلك عديدة، لكن الأمثلة التالية يمكن أن تفي بالغرض. فهذا الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني، المولود بعين ماضي بالأغواط في القرن 18 م، حيث أسس الزاوية التي تحمل اسمه، قد عُرف عنه أنه كان كثير الحلّ والترحال، زار مصر والسودان والحجاز وموريتانيا إلى أن وافته المنية بفاس بالمغرب. وكان ابتعاده عن بلدته قسريا، حيث شعر بامتعاض شديد بما كانت السلطات العثمانية تكيله للجزائريين آنذاك.

أما النموذج الثاني فهو الشيخ المكي بن عزوز الجزائري، الرحماني الطريقة، الذي وُلد بمنطقة بسكرة، لكن ظروفا قد عجّلت بانتقاله إلى تونس، ومن هناك إلى الإستانة بتركيا حيث أصبح مفتيا للديار التركية.. وكذلك هو شأن أحد حفدة الشيخ المغيلي، القادري المذهب، ساهمت صروف الدهر في أن يكون أحد أعلام السنغال ومزارا لمريدي الطريقة هناك.

والحقيقة إنما ذُكر هنا ما هو إلا غيض من فيض، لأن علماء الجزائر، الذين كان لهم شأن ومكانة كبيرة خارج ديارهم، ذاع صيتهم في البلدان التي اختضتنهم، حتى اعتقد البعض بأنهم سليلو المنطقة التي دُفنوا فيها.

إن هذه العينة، لا يمكن لها أن تُخفي عنا، الاتجاه المعاكس لأولئك الذين وُلدوا بالسودان، شرقيُه أو غربيُه، أو مراكش أو القيروان، وحطّوا الرحال بالجزائر، يُدّرسون ويَفتون ويُجاهدون..

1 – لماذا الاستعانة بأدوات بحث في المخطوطات؟

من المهم التذكير بأن عملية وضع المخطوطات تحت تصرف الباحثين، تحقيقا أو اطلاعا، تستدعي أن تسبقها خطوات أخرى مهمة، ليست من مهام الباحثين والمحققين بقدر ما هي من مسؤوليات متخصصين في مراكز وجود المخطوطات، سواء كانت مكتبات عامة أو مكتبات خاصة، مثلما هو شأن مكتبات الزوايا والعائلات....

ولا يخفى على مسيري هذه المؤسسات الإعلامية (باعتبار أن كل مكتبة هي مؤسسة ذات وظيفة إعلامية) إنه لا يمكن للمشتغل في حقل المخطوطات القيام بعمله على أكمل وجه إلا إذا تظافرت شروط علمية وتقنية وثقافية هامة. ومن أجل ذلك عمدوا إلى البحث والتنقيب عن الوسائل المنهجية الكفيلة بحل هذا الإشكال.

ومن هذه الشروط مثلا، الرجوع إلى الفهارس العامة والخاصة للمخطوطات المنجزة في كل من المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة أو فهارس مكتبات المغرب الأقصى وتونس وعواصم بعض البلدان الإسلامية مثل القاهرة أو استانبول، مثلما هو شأن "كشف الظنون" لحاجي خليفة أو "تاريخ الأدب العربي" لكارل بروكلمان أو غيرهما. غير أن أهم تلك الفهارس والبيبليوغرافيات بالنسبة المخطوطات المتواجدة بالجزائر والمغرب العربي عامة، هي تلك الموضوعة من طرف بعض المستشرقين والمهتمين بالمخطوط الإسلامي بالجزائر مثل العمل المنجز من طرف المستشرق الفرنسي "ادمون فانيان" وهو العمل الذي تمّ على معرفة ودراسة واسعة بالتراث العربي الإسلامي. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن المستشرق الفرنسي الآخر"رونيه باصي" الذي وضع مجموعة من الكتب، هي في حقيقة الأمر فهارس عن " المخطوطات العربية" بالمنطقة، خصّها بمخطوطات المكتبات الخاصة وزوايا الجنوب الجزائري.[2]

[2] من هذه الفهارس يمكن ذكر: المخطوطات العربية بمكتبات زوايا عين ماضي وتماسين وورقلة وعجاجة. الجزائر: 1897م.
- René Basset, les manuscrits arabes des bibliothèques de Zaouïas de Ain-Madhi et de Tamacine, de Ouarglaet de Adjadja . Alger : imprimerie Fontana,1885.

والواقع أنه لا تكفي الشروط التقنية وحدها لسبر أغوار المخطوط، ذلك لأن المخطوط يختزن بين طياته، مادة علمية وثقافية هي الأصل في وجود المخطوط ذاته. وهو الأمر الذي يتطلّب الإحاطة بتاريخ ولغة الحضارة الإسلامية، بعصورها المختلفة، وهي النقطة الأساسية التي عبّر عنها المستشرق الألماني المستشرق الألماني جوتهلف برجستراسر بالفهم المبني على شرطين وهما: معرفة المادة التي يبحث فيها الكتاب، ثم معرفة اللغة والأسلوب؛ أما عن الشرط الأول-يقول برجستراسر- أن قانون ابن سينا مثلا لا يمكن أن يفهمه إلا من فهم علم الطب وتاريخه بتعمق. [3]

أما الشرط الثاني، فلا ضرورة لذكره لأنه يعتبر عماد نقد النصوص وتحقيقها، وهو الإحاطة الكاملة باللغة والأسلوب.

ومن الشروط أيضا، الإلمام بالتاريخ الثقافي والعلمي للجزائر مثلا والأقطار المجاورة لها منذ بداية دخول الحرف العربي. وهذا الأمر ينطبق على المخطوط العربي أما إذا كان أجنبيا، إسبانيا أو فرنسيا مثلا فذلك شأن آخر).

ثم التعرف على العلوم والفنون الإسلامية: مجالاتها، حدودها وتصانيفها، أي الإلمام الواسع بالنشاط العقلي والديني بصفة عامة واهتمامات علماء ومثقفي المنطقة بصفة خاصة...

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن هذه الصعوبات ليست حالة خاصة تتميز بها مخطوطات المغرب العربي أو الجزائر، بل هي حالة عامة يشترك فيها جميع المهتمين بعالم المخطوطات في البلاد العربية. والسبب الرئيسي وراء ذلك، يكمن في طرائق الكتابة والبحث عن المؤلفين والكتاب العرب منذ بداية عصر التدوين خلال القرن الثاني الهجري، وإلى غاية بداية القرن العشرين، بل وهي مستمرة لحد الآن في بعض المناطق العربية.

2- صعوبات التقرب من المخطوط

وتتلخص هذه الصعوبات في عملية الكتابة (أو التدوين) ومنها:

[3] برجستراسر،أصول نقد النصوص ونشر الكتب إعداد وتقديم محمد حمدي البكري.الرياض: دار المريخ للنشر،1828،ص510.

-إن الكُتاّب العرب القدامى وحتى المحدثين منهم، الذين تشربّوا طرائقهم في التأليف، كانوا يراجعون ما ألفوا ويزيدون فيه وينقحون، وهو الأمر الذي يزيد في تعدد النسخ واختلافها، ليس من حيث النسخ فحسب، بل من حيث ما تتضمنه كتبهم من معلومات.

-أما الصعوبة الثانية، فمكمنها أن بعض المؤلفين كانوا يملون كتبهم عدة مرات، فيتعرض النص للزيادة والنقصان، وخاصة في أثناء تنقلاتهم إلى مراكز العلم في مشرق العالم العربي أو غربه.

ضف إلى ذلك ما ينتج عن مجالس الإملاء من آلاف النسخ التي تختلف عن بعضها، أقلاما أو تباينا في الجودة والتحكم في اللغة والأسلوب. ومع أن البعض من المؤلفين العرب كانوا يكتبون أعمالهم بأنفسهم، مثلما هو شان آبي حيان التوحيدي أو ياقوت الحموي على سبيل المثال، إلا أن نقولات كتبهم قد تتعرض للخطأ أو الزيادة آو النقصان.

إلا أن من أهم الصعوبات المادية (المخطوط من حيث كونه مادة) والعلمية والثقافية، في عملية الفرز والترتيب والتصنيف التي قام بها مسيرو مكتبات الزوايا في هذا الشأن، تكمن في أن عددا ليس باليسير من المخطوطات مفقودة الصفحة الأولى أو الصفحتين الأوليتين، واللتين من المفترض إن نجد بهما اسم صاحب المخطوط أو ناسخه أو تاريخ نسخه.

وصعوبات أخرى في هذا المجال بالذات تستدعي القيام بعملية مسح شامل للفهارس الموضوعة في المكتبات العامة والخاصة للتغلب على هذه المعضلة.

وإجمالا يمكن حصر هذه الصعوبات المادية فيما يلي:

-النقص في صفحات الكراريس (أو الملزمات) سواء مع بداية النص أو وسطه أو آخره أو الثلاثة معا. وبذلك لا يمكن في بعض الحالات التعرف على عنوان أو ناسخ آو تاريخ النسخة، مع العلم أن مادته وموضوعاته تومئ بأننا أمام مخطوط مهم، علميا وثقافيا...

-الاضطراب في الأوراق وهو الأمر الذي يشكل هاجسا كبيرا لدى مسيري خزائن المخطوطات وخاصة إذا ما علمنا بأن المخطوط لا يعتمد الترقيم المتعارف بل على تقنية خاصة بالمخطوط الإسلامي وحده.

-الصعوبة في إدراج بعض الكراريس التي لا يعرف مكانها الصحيح، ذلك لأننا يمكن أن نجد بالمخطوط الواحد (المجلدة الواحدة) مخطوطات عديدة وأسماء متعددة.

وصعوبات أخرى من هذا القبيل لا يمكن التغلب عليها، لو لم يتسلح المهتمون بما جاء في الشروط التي يتوجب أن يلم بها المشتغل بهذا العلم الفذ وهذا العالم الواسع، وهي الدراية الواسعة بالخطوط والورق والفنون من تاريخ وسيرة وفقه وما إلى ذلك...

3-الفهارس والبيليوغرافيات: كأدوات بحث في المخطوطات:

أدوات البحث في المخطوطات الجزائرية بالمفهوم الآنف الذكر، هي تلك المجموعة من المصادر والكتب المرجعية الشاملة، مثل فهارس المكتبات والخزائن والبيبليوغرافيات وبرامج الشيوخ الذائعة الانتشار في الثقافة العربية عموما، والمغاربية على وجه الخصوص.

ولمعرفة دور هذه المصادر باعتبارها جزءا مهما من أدوات البحث الضرورة للباحث في مجال المخطوطات، تجميعا أو تحقيقا، لابد من الرجوع أولا، ليس إلى الأصل في تكوين هذه المصادر فحسب، بل بالرجوع أيضا إلى المنطلقات المنهجية والعلمية التي كانت وراء تكوينها...

كان بروز علم دراسة أحوال الكتاب-وهو المصطلح الذي أعطاه حاجي خليفة لعلم البيبليوغرافيا، نتيجة المنطقية والموضوعية لنشأة وتطور المعرفة عند المسلمين منذ أن كانت أقوال حكمية أو إخبارية أو شعرية عند عرب ما قبل الإسلام إلى أن استوت في ثوب العلوم والفنون الإسلامية، وتوسعت مع ما تم نقله وترجمته من علوم الأمم والشعوب القديمة.

وأول من نبغ في ذلك هو محمد بن إسحاق بن النديم الوراق (المتوفى بعد سنة 377هـ) في مؤلفه " الفهرست" الذي جمع فيه، خلافا لكتب التراجم والطبقات التي عرفت قبله أو بعده، بين التصنيف الذي يتطلب إدراكا للنظريات المعرفية وبين البيبليوغرافيا التي هي في نظر حاجي خليفة أهم العلوم وأولى مرحلة من مراحل البحث والتنقيب. ومن لم يعلم ما أُلّف من الكتب في أي موضوع كان، يطول عليه أمد بحثه

بدون أن يحصل منه على طائل" [4]، فأرخ للنشاط الثقافي والعلمي الإسلامي للقرون الأربعة الهجرية الأولى....

ثم تبعته أعمال عديدة متخذة من منهجه في تصنيف العلوم والمؤلفات والترجمة لأصحابها مثلما هو أمر كتب برامج العلماء أو فهارس الشيوخ، التي أشتهر بها علماء وكتاب الأندلس والمغرب الإسلامي على وجه الخصوص، مثل ابن خير الإشبيلي (القرن السادس الهجري) وأبي العباس الغبريني البجائي (القرن السابع الهجري). ثم أخذ كتّاب المعاجم التاريخية والتراجم مثل ياقوت الحموي في "معجم الأدباء" والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والقفطي في "إنباه الرواة" وغيرهم في ترجماتهم للمؤلفين والعلماء والأدباء، بمنهج الكتابة عن الكتب وتصنيفات المؤلفين، لكنهم على الرغم من ذلك لم يكونوا منطلقين من فلسفة تصنيفية مثلما كان الحال عند ابن النديم وغيره من البيبليوغرافيين. ولم يتخذوا من ذكر مؤلفات الكتب منهجا عاما لأعمالهم.

غير أن هذا التأريخ للنشاط الحضاري العام، لم يمنع من ظهور أعمال بيو-بيليوغرافية، تتخذ من البعد المكاني أو الإقليمي منهجا لها، كما هو الشأن عند الغبريني في "عنوان الدراية"(القرن 7هـ) أو عند العباس بن إبراهيم المراكشي في "الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الإعلام" (القرن 8هـ) أو عند الشيخ أبي القاسم الحفناوي في "تعريف الخلف برجال السلف "القرن 13هـ) وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم التعريف بأعلام عصرية وأقاليمهم من الكتاب والعلماء، بقصد مواصلة ما سنّه الأوائل في هذا المجال سواء أولئك الذين صنّفوا في علم البيبليوغرافيا أو أولئك الذين اتخذوا من روح هذا المنهج من أجل الكتابة عن شيوخهم وما قدموه لهم من العلم، عرفانا لهم وترحما عليهم في فهارس الشيوخ...

4-نماذج من أدوات البحث في المخطوطات الإسلامية في الجزائر:

4-1 فهارس الشيوخ أو برامج العلماء:

[4] حاجي خليفة،كشف الظنون،ج1،مقدمة الكتاب، ص1.

واصل المسلمون تأليف ما بدأوه من فهارس آو أثبات(ثبت) في إطار علم الحديث[5] حيث كان العالم يقوم بتسجيل رواياته في الحديث بالسند (الإسناد)والكتب التي قرأها، مثل صحيح البخاري وغيره من الكتب الستة المشهورة، كما يسجل شيوخه الذين درس عليهم ولا سيما شيوخه في علم الحديث.

ولقد عرفت هذه الفهارس تطورا ملحوظا في المشرق كما في المغرب والأندلس منذ القرن الثالث الهجري إلى غاية القرن الماضي (القرن الرابع عشر الهجري). وكان يقصد بهذه الفهارس التي اتخذت مصطلحات عديدة مثل: الإثبات، البرامج، المشيخات، المعاجم، المسلسلات، التقييدات والاسنادات، تلك القوائم التي كان بها العالم المسلم يحصر ويسجل ويصف الكتب التي درسها على شيوخه، سواء كانت بالقراءة أو السماع أو الإجازة وكانت هذه الفهارس (البرامج) تُتداول بين العلماء، ومما يتفاخرون به فيما بينهم....

غير أن شغف علماء الأندلس بذلك، كان أكبر مما كان عليه في المشرق، وشارك فيه المتقدمون منهم والمتأخرون في إنتاجه مشاركة قوية. وحيثما كان الاطلاع في كتب التراجم، وجدنا بين الحين والآخر قولهم "وله برنامج" أو "له فهرسته". ويذهب شعبان عبد العزيز خليفة إلى القول بخصوص هذا النوع من البيبليوغرافيات "إن الغرب لم يعرفه، ولذلك نجد له مصطلحا غريبا مقابلا له. أما عن عددها فهي تقارب ثلاثة آلاف فهرست أو برنامج" [6].

وتكمن أهمية هذه الكتب من الناحية العلمية في أنها تسهم في الوقوف على أهم مظهرين من مظاهر الثقافة في أثناء الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري في كل من المشرق أو المغرب والأندلس؛ فهي في المظهر الأول تميط اللثام عن حركة التعليم والتدريس في الأندلس والمغرب خصوصا

---

[5] تصنيف الحديث: وهي المرحلة التي تصادف مرحلة تصنيف العلم وتبويبه عند المسامين، والتي تكاد تتفق–عند جل القدامى من أمثال أبي الطالب المكي والذهبي– مع نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري، حيث باشر المسلمون بإشراف الدولة، تدوين العلم(الحديث) وتبويبه. وقد طبعت هذه العملية الواسعة بطابعها حياة المسلمين الفكرية والاجتماعية، لفترة تزيد عن قرن من الزمان. وأهم ما نتج عن المراحل الثلاثة المذكورة هو إرساء قواعد الإسناد ونقد المتون، ويرجع الفضل في ذلك إلى الطريقة المبتكرة التي اتخذها المسلمون الأوائل في تسديد سير الأخذ بالصحيح من الأحداث النبوية الشريفة.

[6] شعبان عبد العزيز خليفة، البيبليوغرافيا أو علم الكتاب، ص149.

استعمل المغاربة والأندلسيون من تلك المصطلحات ما يلي: فهرسة، فهرس، برنامج، مسلسل، مشيخة....

راجع ذلك عند :عبد العزيز الأهواني،"كتب برامج العلماء في الأندلس" مجلة معهد المخطوطات العربية"، جامعة الدول العربية، المجلد الأول،الجزء الأول، ماي 1955،ص91.

وفي مظهرها الثاني، تلقي الضوء على المكتبة العربية والنشاط التأليفي خلال تلك العصور المتفاوتة. كما تكشف عمّا يتصل بحياة الكتب في الأندلس وصلتها بما كان يؤلف في المشرق أو العكس.

وعن كان أصل هذا النوع من الكتب يرتد بوجوده إلى علم الحديث، ويحتفظ ببعض مصطلحاته وأساليبه، إلا أنه استقل عنه، وتفرد بطابع خاص، يكمن في إسناد المرويات إلى العلماء والشيوخ. أي أن الهدف هو غير الهدف الذي وجدت من أجله، كتب المتحدثين الأوائل، الذين يسندون أحاديثهم إلى الرواة الذين نقلوا عنهم؛ فالمرويات لم تعد كما كانت في السابق محصورة في الأحاديث النبوية الشريفة وأسانيدها، بل تعدتها إلى كل أنواع المرويات الأخرى، في علوم الدين واللغة والأدب أو غير ذلك من أنواع "المرويات...

ولقد أدت هذه الظاهرة غير المسبوقة في تاريخ الثقافات، بالعديد من العلماء منذ القرن السادس الهجري، إلى محاولة ضبط هذه الفهارس والبرامج ضبطا بيبليوغرافيا يسمح من الناحية التقنية والإحصائية، بالتعرف على مجمل هذه الكتابات من جهة، ورصد أهم التيارات الفكرية والمذهبية المتحكمة فيها من جهة أخرى؛ فكان أن قام ابن خير الأشبيلي في القرن السادس الهجري مثلا، بعد أن استوفى موضوع فهرسته، بذكر سجل حافل لما رواه من كتب الفهارس الجامعة لروايات الشيوخ والذي كتابه واحد منها.. وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ الذي ذيل فهرسته فوضع فيه مروياته عن شيوخه، المعروف باسم (المعجم المفهرس)، خصّصه من أجل حصر كتب الفهارس السابقة عليه. وقد رتبها كرونولوجيا أو حسب تواريخ أصحابها. ويعد هذا الجزء أهم ما في المعجم من الناحية الحصرية لما سبق من الفهارس.

كما يوجد إلى جانب هذا الفهرس الحصري (أو بالمصطلح الحديث: بيبليوغرافية-بيبليوغرافيات) عدد آخر، منه على سبيل المثال" عمدة الثبات في الاتصال بالفهارس والإثبات" لأبي عبد الله محمد المكي بن عزوز التونسي الجزائري الأصل (برج بن عزوز القريب من مدينة طولقة بنواحي بسكرة) المعاصر لعبد الحي الكتاني صاحب كتاب "فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعجمات والمشيخات".

والطريف في مجال كتابة هذه الفهارس أو البرامج أو المشيخات عند المسلمين شرقا و غربا ، أن ذلك لم يقتصر على العلماء و الشيوخ من الرّجال فقط ، بل تصدّى له أيضا النّساء من الأستاذات والشّيخات ، فكان يمثل اتجاها فريدا في كتابة البرامج و المشيخات، خاصّا بالثقافة الإسلامية وحدها ؛ فأصدرت كثير من الشيخات الأستاذات فهارس لهن ذكرن فيها الكتب التي درسنها والشيوخ الذين درّسوا لهن ، مثل « مشيخة أم زينب بنت عيس بن عبد السلام، و "مشيخة أم محمد وجيهة بنت علي الإسكندرانية" و"مشيخة شهدة الكاتبة" تخريج أبي محمد بن الأخضر وغيرها كثير جدا.[7] كما شهدت كتابة البرامج أيضا نوعا ثالثا، اقتصر فيه بعض العلماء على ذكر أستاذاتهم من النساء مثلما هو الشأن بالنسبة إلى "معجم النسوان" لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر المتوفى سنة 571هـ.[8]

2-4 نموذجان من فهارس الشيوخ الأقدم عهدا:

من أجل إعطاء لمحة عن هذه الفهارس والبرامج التي تعد بالمئات، سيتم اختيار نموذجين، أحدهما أندلسي هو فهرسة ابن خير الإشبيلي (502-575هـ)، وثانيهما جزائري هو مشيخة أبي العباس أحمد بن أحمد الغُبريني (644-704هـ)، الّذي كتبه صاحبه في خاتمة كتابه المشهور باسم عنوان الدراية فيمن عُرف من علماء المائة السابعة ببجاية "[9] .

- **فهرسة ابن خير الإشبيلي:** حرص ابن خير الاشبيلي في مقدمة الكتاب التي تقع في ثماني عشر صفحة على التوطئة لعمله، يذكر فيها الأسباب التي دفعته الى تأليف الفهرسة وعن فضل العلم وفائدته، والوسائل التي يتم بها نقل العلم. ولم ينس في سياق حديثه عن ذلك شرح مصطلحاته ومصطلحات " تحمل العلم " وروايته حسب ما تقتضيه دراسة علم الحديث عند المسلمين.

---

[7] شعبان عبد العزيز خليفة، البيبليوغرافيا أو علم الكتاب، ص178

[8] المرجع نفسه، ص.179.

[9] على أنّ هذا الكتاب "عنوان الدراية" للغبريني يمكن وضعه في قائمة الكتب البيبليوغرافية التي تؤرخ لأهم مرحلة من مراحل الجزائر الثقافية خلال القرن السابع الهجري، ذلك لأن هذا المؤلف قد اعتنى – بالإضافة إلى ذكر العلماء– بالكتب و المؤلفات العلمية التي اشتهرت آنذاك..

وعن الأسباب الّتي أدّت به إلى إنجاز عمله فيقول: " رغبة في العلم وعناية بتقييده وهمّه في تحصيله أن أذكر لهم ما رويته عن شيوخي رحمهم الله من الدوّاوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف وأن اذكر أسانيدي عنهم فيها الى مصنّفيها وما قرأته من ذلك عليهم أو سمعته عليهم بقراءتهم أو بقراءة غيري، وأن أضيف إلى ذلك ما ناولوني إياه وأجازوه لي، ولما علمت ما لحَمَلَة العلم من الشّرف، عند السلف والخلف وعظم شأنهم وعلوّ قدرهم".[10]

وبعد شرح الوسائل التي يتم بها نقل العلم ومصطلحاته في الباب الأول من كتابه، وذكر منهجه، حيث يروي أسماء الكتب حسب ترتيب العلوم، فالكتب المؤلفة فيها والتي وصل عددها حوالي1400عملا، وإن رمنا التدقيق فهي1440 عملا[11] وعدد الشيوخ ألف شيخ.

يبدأ ابن خير في هذا الباب بسرد ما رواه من الدواوين المؤلفة في علوم القرآن، وصدّرها بكتب القراءات وما يتصل بها من ناسخ القرآن ومنسوخه والأحكام والتّفسير، بلغت ثلاث وخمسين صفحة وشملت 99 كتابا وستة مرويات أخرى بين القصائد الشعرية في القراءة والقرّاء.

ثم انتقل في الباب الثاني إلى الحديث النّبوي الشّريف، فاستغرق حوالي ثلث الفهرسة نفسها، أي أكثر من 150 صفحة.[12] بدأها بالموطآت والمصنّفات المسندة ثم سائر كتب الحديث وما يتصل بعلمه من معرفة العلل والتواريخ والرّجال. وبهذا يعتبر ما ذكره في باب الحديث أوسع ما ذُكر في الكتاب، حيث بلغ عدد الكتب من موطآت ومصنفات وما إلى ذلك نحو مائتي وستين كتابا.

أما الباب الثالث، فقد خصّصه لكتب الأنساب والسّير ونحو ذلك، والّتي بلغت ثمانية عشرة كتابا. وبعد الانتهاء منها يدخل في كتب الفقه، ويقتصر على المؤلفات في المذهب المالكي دون غيره وقد بلغ عددها خمسة وثلاثين كتابا.

---

[10] ابن خير الإشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق فرنسشكة قدارة. ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997، ص. 6.

[11] بما في ذلك الرسائل الصغيرة والقصائد الفردية. وعلى هذا الأساس نزل عدد المرويات عند محقق الكتاب فرنسشكة قدارة إلى 1040كتابا، لكنه بقي هذا العدد من الكتب تقريبا فيما ذكرته دائرة المعارف الإسلامية أي 1400 كتابا.

[12] يقع الكتاب كله (أي ما وضعه ابن الخير في أربعمائة وثلاث وستين صفحة 463) وما تبقى من الصفحات التي تبلغ 125 صفحة فهو عبارة عن فهارس للكتب والمؤلفين والأماكن من وضع محقق الفهرسة فرنسشكة قدارة.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى كتب (أصول الدين وأصول الفقه وفضل العلم غير ذلك ممّا يتصل به) [1]فيذكر ما لا يقل عن أربعة وأربعين كتابا (44) بين كتب الأشربة والفرائض وعبارة الرؤيا.

أما بما يتصل بكتب الزّهد والرقائق وما يتصل بها فكان عددها في هذا الباب نحو أربعة وخمسين كتابا (45).

ثم يدخل بعد ذلك ودون إعلام القارئ أو المطلّع للفهرسة إلى أبواب أربعة يتّبع فيها ترتيبا آخر مخالفا للأبواب السابقة، قائما على مداخل بالمؤلفين. وقد أعطى لذلك عنوانا هو " من تواليف فلان " وكانت على التّوالي:"ومن تواليف أبي بكر بن أبي الدّنيا رحمه الله " و " ومن تواليف أبي سعيد بن الأعرابي رحمه الله في معاني الزهد " و " ومن تواليف أبي بكر محمد بن الحسين الأجري " ثمّ "ومن تواليف أبي ذر عبد بن أحمد الهروي رحمه الله "، وقد كان لهذا الأخير نصيب الأسد من حيث عدد التواليف حيث بلغت وحدها أربعة و سبعين (74) توليفا. أمّا من سبقوه فكان عدد ما صنفوه في الإجمال نحو خمسة وثلاثين كتابا.

وبالانتهاء من ذلك، يدخل بابا أوسع يجعل عنوانه " ومن كتب الأنحاء واللّغات والأدب والشروحات وأشعار العرب المحدَثين وما يتصل بذلك من نوعه."[13] وقد بلغ عدد الكتب المروية فيه نحو إثنين وثلاثين كتابا.

- **برامج مشيخة الغبريني** : يتميّز عن البرامج السابقة، من حيث كونه جاء متصلا أو ذيلا لكتابه المشهور: (عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية).[14]

أما صاحب هذا الكتاب فهو القاضي أبو العباس أحمد بن أحمد الغُبريني، المولود ببجاية أو بني غُبرين سنة 644هـ[15]، وإذا كانت معظم المصادر تكاد تتّفق حول تاريخ مولده، فإنّها تختلف حول تاريخ وفاته،

---

[13] المصدر، ص. 305.

[14] من تحقيق رابح بنوار، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة 1981م. ويختلف هذا الكتاب عن (برامج المشيخة) في أنه يترجم لعلماء بجاية الأصليين أو الوافدين عليها خلال القرن السابع الهجري، غير أنه خرج عن هذا النطاق فذكر بعض علماء القرن السادس الهجري كأبي مدين وابن علي المسيلي وغيرهما..

[15] الزركلي، الأعلام، ج1، ص. 88.

حيث يذكر الزّركلي بأن ذلك كان سنة 714هـ ،في حين أن ابن خلدون يقول بأن مماته كانت سنة 704هـ،رابطا بين ذلك وبين ما حدث للغُبريني في أثناء سفره إلى تونس، بقوله : « و لما تولّى السّلطان أبو البقاء خالد اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعا للزبون عنه، وعين للسّفارة في ذلك القرابة لحكم المواصلة بينه ، وبعث معه القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية (..) فأدّوا رسالتهم و انقلبوا إلى بجاية.." (...) وتقبّض عليه سنة 704هـ، ثم أغروه بقتله فقتله بمحبسه سنته تلك. ".[16]

ويظهر ممّا كُتب عنه هنا وهناك، أن الغُبريني ينتسب إلى أسرة عريقة في العلم والقضاء، تنحدر من بني غبرين بأحواز العزازقة من بلاد القبائل الكبرى، حيث نبغ فيها غيرُ المؤلف عددٌ من الأعلام، ترجم هو ذاته لإثنين منهم في "عنوان الدراية" أحدهما: أبو النّجم هلال بن يونس بن علي الغبريني، وثانيهما أبو محمد عبد الحق بن يوسف حمامة الغُبريني.

وتكمن أهمية ما كتبه أبو العبّاس الغبريني، سواء في عنوان الدّراية أو في برامج مشيخته، في أنه يؤرخ للحياة العلمية والثقافية، لإحدى أهم مدن الجزائر آنذاك، وهي بجاية خلال القرن السّابع الهجري، حيث استطاعت أن تستقطب بما كان لديها من مساجد ومراكز تعليمية عددا كبيرا من العلماء، في ميادين مختلفة من العلوم.[17]

أما عن برنامجه فيمكن القول بأن الغبريني قد ابتدع طريقة، قلّما نجد لها مثيلا في فهارس من سبقه من العلماء، بحيث سار، بالإضافة إلى ما عُرف عن التّبويب على أساس الكتب (مرتبة على حسب موضوعاتها) وفق تصنيف آخر، يأخذ في الاعتبار تقسيم العلوم ذاتها، مبنيّ على فلسفة معرفية واضحة.

فهو بعدما يبيّن الهدف المنشود من (المشيخة) هذه بقوله: " وإنّي أردت لما أتيت على ذكر ما شرطه ذكرَه من علماء المائة السابعة، ومن انضاف إليهم فيمن كان في آخر المائة السادسة نفّع الله بهم (..) رأيت أن أذكر بعد ذلك طريقة استفادتي ممّا استفدته ووجه تلقيّ ما تلقّيته من العلم ورويته، لينتفع بذلك

---

[16]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج6، ص.719.(ويشير إلى هذا التّاريخ أيضا أبو القاسم الحفناوي في "تعريف الخلف برجال السّلف" ج1.ص 25.

[17] ينقل ابن بشكوال عددا كبيرا من أسماء العلماء الجزائريين (المغرب الأوسط) في كتابه "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس" قبل القرن السادس الهجري. راجع المصدر. ج1، القاهرة: الدار المصرية للتّأليف والتّرجمة،1966 ، ص.ص.: 298-300.

من له أرب، وليجده منظوما كيف يريد من له عليه بحث وطلب.."[18] يوزّع الغبريني مادة البرنامج إلى صنفين من العلوم :" أحدهما علم الدّراية، والآخر علم الرواية " أمّا علم الدّراية فهي كما يقول: " جملة العلوم التي أحتاج إلى ذكرها في هذا الموضوع يحتمل الدراية، وهي علم الفقه، وعلم الأصلين، أصول الدين وأصول الفقه وعلم العربية وعلم التصوّف وعلم المنطق .."[19]

أمّا فيما يخص علم الرّواية فهو العلم الذي حصل للمؤلف عن جملة من شيوخه مثل الشّيخ أبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري ، و أبي محمد القيسي و غيرهما ، و يُشترط في هذا النّوع ، اتصال الأسانيد و الرّواية ، أو بعبارات المؤلف : "..وها أنا أذكر من ذلك ما هو ضروري من اتصال أسانيدي و رواياتي عنهم رحمهم الله تعالى على الوجه الأعم الشامل لحصول الرّواية بأيّ وجه حصل أورد ذلك على اتصال الإسناد ، وأذكر منهم معظم ما يقصد من المرويات و ما يراد، و المقصود المهم ، و المعظم الذي يعتني به اللّبيب و يلّم ، هو علوم تفسير القرآن العزيز ، وعلوم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم العربية ، و علوم التصوّف والتذكير ...) [20]

هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى، فإنّ النّوع الثّاني في هذا التّقسيم، قد أخذ الجانب الأهم من برنامج الغبريني، بحيث خصّ الأول (أي الدّراية) بأربعة صفحات فقط، من جملة سبع عشر صفحة، في حين أن علوم الرّواية، قد شملت على ما تبقّى من ذلك. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهمية العلوم النّقلية المسندة في حياة العلماء المسلمين في تلك الفترة. ولم يكن شأن الغبريني في ذلك إلا كما كان شأن صنّاع البرامج والفهارس الذين أخذوا من منهجية الإسناد، الجرح والتعديل، ومن علم الحديث مطية للتأريخ العلمي والتعليمي والتأليفي..

---

[18] الغبريني، عنوان الدراية "" برامج مشيخة المؤلف "، ص. 307.

[19] وهو نفس التّصنيف الّذي اعتمده فيما بعد ابن خلدون حينما فرّق بين نوعين من العلوم، أحدهما طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمّن وضعه". والأول هو العلوم الحكمية الفلسفية وهي الّتي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره (..)والثاني هو العلوم النّقلية الوضعية وهي كلّها مستندة إلى الخبر عن الواضع، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع.." المقدمة، ج1، ص. 345.

[20] الغبريني، المصدر، ص.310.

إن ما يمكن ملاحظته من الناحية المنهجية في ترتيب مواد البرنامج، أن الصّنف الأول قد غلب عليه ذكر الشيوخ والأساتذة الّذين أخذ عنهم الغُبريني. وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثة وثلاثين شيخا بين فقيه وعالم لغة، في حين أن عدد الكتب (وذلك بالقياس إلى الأساتذة كان قليلا، لا يتعدّى في مجمله العشرة كتب. وتفسير ذلك، ربّما يرجع إلى أن الغبريني قد ركّز على طريقة الاستفادة والقراءة والتعلّم من لدن الشيوخ أكثر من أي شيء آخر. كما في قوله عن تحصيله لعلم الفقه: "وأما شيخنا أبو محمد عبد الحق بن ربيع، فكثرت الاستفادة منه والبحث والمباشرة والتكرار في أكثر الأزمنة وإلقاء الصّعاب وحلّها بالكتب والمجاوبة حتّى جرى ذلك مجرى الدّرس.." [21]

ويقول في موضع آخر، عن علم العربية وشيخه أبي الحجّاج بن سعيد: "فقرأت عليه وأعربت وسمعت بقراءة الحاضرين وكان ميعاده مشحونا بالطلبة، والذي يقرأه هذا غير الذي يقرأه هذا، والذي يعربه هذا غير ما يعربه هذا، فوقع الانتفاع به بالقراءة والسماع..".[22]

غير أن الصّنف الثاني من البرنامج، كان أكثر حظا من الأوّل، حيث ذكر أبو العبّاس في العلوم الخمسة المدرجة فيه مالا يقل عن ثمان وأربعين كتابا جامعا في الفقه، والحديث واللّغة وغيرها وضعف هذا العدد عن الشّيوخ والأساتذة.

وبعكس الاقتضاب الّذي تميّز به الغبريني في الجزء الأول من هذا البرنامج، فإنّه كان في الجزء الثاني منه أكثر استطرادا وأغزر إعلاما، حيث ذكر بالإضافة إلى الكتب ومن حدثه فيها من الشيوخ، ترجمة بعض العلماء والفقهاء.

وزبدة القول عن برنامج مشيخة الغبريني، أن لكتب البرامج عامة، سواء تلك التي ألّفها أصحابها مستقلة مثل فهرسة ابن خير الإشبيلي أو متصلة بعمل مثل برنامج الغبريني، من الفهارس والبرامج التي لا تسهم في إماطة اللثام عن الحركة الثقافية والتّعليمية والتّأليفية وحسب، بل تقدم أيضا أخبارا علمية خطيرة الشأن بالنّسبة للباحثين سواء تعلقت بأخبار التأليف أو المؤلفين.

---

21 المصدر، ص. 308.

22 – الغبريني ، المصدر ، ص 308 .

3-4 نموذجان من فهارس الشيوخ الأحدث عهدا:

- **تعريف الخلف برجال السلف** *لمحمد أبي القاسم الحفناوي*

ولد الشيخ الحفناوي في سنة 1852 ببلدة سيدي إبراهيم قرب مدينة بوسعادة، وهي الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر الحديثة. يقول في مقدمة الكتاب عن اجتهاد علماء ومثقفي الجزائر في طلب العلم بجميع أسبابه:

" ...هذه أسماؤهم وتراجمهم مزاحمة الأسماء لأسماء وتراجم أعيان الزمان في كتب المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الإسلام في بطون الدفاتر لئلا تقع في أغوار التناسي وآبار الإهمال».

ثم يذهب –بعدما يتحسر على التناسي الذي لقيه العلماء والأولياء من طرف معاصريه–إلى ذكر مصادره، فيسرد مجموعة كبيرة منها:" ربح التجارة في مناقب سيدي أحمد بن يوسف الراشدي المليانى" و"سلك الدرر" ونشر المثاني" وكتاب الملالي في مناقب سيدي محمد بن يوسف السنوسي التلمساني" وعنوان الدراية "للغبريني" والبستان لابن مريم وغيرها..

وبذلك جمع عددا هائلا من تراجم المؤلفين مع ذكر مؤلفاتهم، وصل 420 ترجمة لأشخاص عاشوا بالجزائر (أو المغرب الأوسط) من القرن العاشر ميلادي إلى غاية بداية القرن...

سار الحفناوي في ترتيب كتابه وفق الترتيب الهجائي المتبع في غالبية الأعمال البيبليوغرافية العربية الشاملة مثل" الكشف" لحاجي خليفة أو الإقليمية مثل "البستان" لابن مريم لكنه على العكس منهما، يذكر تحت كل اسم كل عالم المصدر الذي نقل منه ترجمته، إن كان مذكورا في المصدر ويضع عند تمامها لفظة "انتهى" أو مختصرها، ويعطف عليها ترجمته في كتاب آخر إن وجدت.

واللافت للنظر في ذلك، أن الحفناوي قد اعتمد في هذا الكتاب كليا على الكتب المخطوطة والسبب في ذلك راجع حسبه إلى عدم وضوح الكتب المطبوعة على الحجر أو لأنها لا تخلو من خلل في الحروف والأرقام.

على كل فإن" تعريف الخلف برجال السلف" عمل مهم للباحثين في مجال المخطوطات بالجزائر في العصرين الوسيط والحديث. كما يمكن اعتبار هذا العمل أداة بحث ضرورية للمشتغلين في حقل المخطوطات، ذلك لأنه يسعفهم بالملاحظات الهامة حول الكتّاب ومؤلفاتهم..

– "فِهرِس الفهارس والأَثبات" لعبد الحي الكتاني :

لهذا الفهرس الأخير، مكانة علمية كبيرة، تكمن في انه يركز على أعلام المغرب العربي، ويغطي من الأعلام والشيوخ والفهارس، مما لم تتعرض له الفهارس ولا كتب التراجم والإعلام المتداولة قبله.

يقع الكتاب في سفرين كبيرين، الأول في أكثر من 440 صفحة والثاني في أزيد من 490 صفحة، يترجم فيهما لما يزيد عن خمسمائة (محدث وشيخ)، ويثبت لما يزيد من مائتي مشيخة وفهرسة وثبت، وفي أثناء ذلك يتعرض للمحدثين بصفة خاصة، وللعلماء بصفة عامة، بدءا من القرن السابع الهجري إلى الثالث عشر منه. وقد قدم للمؤلف لعلمه هذا، بأربعة مقدمات، الأولى، ضمنها ترجمة وافية للمؤلف رحمه الله (الشيخ عبد الحي الكتاني) وماله من مؤلفات في شتى فنون العلم، أما المقدمة الثانية فقد تعرض فيها للمترجَم لهم وللأثبات التي يذكرها، يفرق فيها بين الحافظ والمحدث والمسند، والثالثة، في الإسناد وفضله والإجازة ودورها في إلحاق الأواخر بالأوائل، أما الرابعة فقد خصصها للوفيات أو التراجم وأهميتها. ثم شرع في الكتاب بادئا بحديثه الأولية، متتبعا في ذلك الترتيب الهجائي المطابق للترتيب المعمول به في المغرب العربي (أ.ب.ت.ث.نح.خ.ج.د.ذ.ر.ز.ط...) ثم يكتب الأوائل (والأوائل كتب صغيرة الجم وضعها أصحابها طلبا للإجازة فكتبوا جملة من أوائل مجموعة من الكتب الحديثة خاصة [23](فالترجمة للمحدثين وقد بلغ عدد الفهارس التي حصرها الكتاني في فهرسه 1225 منها 662 بأسماء المؤلفين و523 بعناوين الفهارس... ولم يفوت الكتاني– ما سبقت الإشارة إلى ذلك–فرصة تعريف مصطلحاته

[23]كمثال لكتب الأوائل، أوائل العجلوني المذكور في "الفهرس" وهو كتيب في أقل من أربعين صفحة من القطع المتوسطة، جمع فيها صاحبه الحديث الأول من أربعين كتابا حديثيا....

أو المصطلحات المتداولة في هذا المجال، فذكر معنى المسلسل والثبت والفهرسة والمشيخة والإجازة وهي المصطلحات التي شملها عنوان الفهرس ذاته.[24]

والحقيقة أن العلماء والفقهاء من الأسلاف قد عرفوا عددا ضخما من هذه الفهارس أو البيبليوغرافيات بالمفهوم الحديث، لا يتسع المقام هنا لذكرها كلها. غير أن هناك أعمالا زاوجت بين " الفهرسة" والترجمة وعرفت ذيوعا كبيرا في المغرب والأندلس أكثر من غيرها من مناطق العالم الإسلامي الأخرى ثم في العصور الحديثة، منها على سبيل المثال لا الحصر: أسماء الكتب لرياضي زادة، الديباج المذهب لابن فرحون، ونيل الابتهاج في تذييل الديباج لأحمد بابا التنبوكتي وغيرها، وهي كلها من الأدوات الضرورية في علم تحقيق المخطوط أو تصنيفه.

4-4 البيبليوغرافيات والفهارس الأجنبية:

لا تقتصر إسهامات المستشرقين على نشر المخطوطات العربية وتحقيقها أو الدراسات الفيلولوجية لها (تحقيق النصوص) أو إبراز مكانة التراث العربي الإسلامي فحسب بل تمتد أيضا إلى الكتابة عن المخطوطات (الكتب) أو البيبليوغرافيا، أي الاهتمام بالتأريخ للثقافة والتأليف عند المسلمين بحيث قام عدد كبير منهم بمجهود معتبر في هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

-المستشرق "شنور Shnurrer الذي نشر Bibliothéca Arabica باللغة اللاتينية في الفترة من سنة 1796 إلى 1806 ثم أعاد إصدارها في سنة 1811 في طبعة جديدة. وقد أحصى شنورر في هذا العمل كل المؤلفات العربية التي طبعت في أوربا ابتداء من عام 1505، وهو تاريخ البدايات الأولى لطباعة في أوربا حتى سنة 1810، ورتبها في سبعة أقسام موضوعية، تبدأ بالنحو ثم التاريخ فالشعر مع كشّاف مرتبة ترتيبا كرونولوجيا...

[24] المسلسل هو أن تتسلسل الحركة أو القول عن كل راو، وكمثال على ذلك المسلسل بالقبض على اللّحية مثلا، فإن كل راو يقبض على لحيته كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم تبعه بعد ذلك المستشرق "زنكر Zenker" الذي حاول أن ينجز عملا أكثر شمولا من عمل سابقه Bibliothéca Orientalis حيث عمد حصر كل المؤلفات العربية والفارسية والتركية، منذ بداية الطباعة إلى غاية 1840.

ثم يليهما فيكتور شوفين "Victor Chauvin حيث أكمل ما بدأه شنورر في Biblio-Arabica فأنجز مؤلفا ضخما في اثنتي عشرة مجلدا، سماه Bibliographie des ouvrages arabes relatifs aux arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885.، أو ببليوغرافية الأعمال العربية المرتبطة بالعربية تمّ نشرها في أوروبا المسيحية من سنة 1810 إلى سنة 1885.

والواقع أن قائمة الإسهامات الاستشراقية في هذا المضمار طويلة ليس هنا مكان الحديث عنها، لكن نماذج مهمة منها، تكتسي أهمية بالغة بالنسبة للمخطوط الجزائري، لا بد من ذكرها حتى تتضح الصورة أكثر. ومن ذلك ما صنفّه المستشرق الفرنسي "رونيه باصي" في هذا الميدان، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: وثائق إسلامية حول حصار الجزائر سنة 1541م " Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1541(1890)"؛ و"مكتبات زوايا عين ماضي، تماسين، ورقلة، عجاجة والهامل "؛ و"مكتبة مدرستي الجزائر وتلمسان"، و"خزانة المسجد الكبير بالجزائر العاصمة". ومن المكتبات الخاصة، مكتبة الشيخ سيديا بالصحراء التي كانت تتكوّن من 512 مخطوطا و683 كتابا مطبوعا حسب "روني باصي"، ثم "مكتبات منطقة الميزاب مثل مكتبة قطب Ceutb و"مكتبة الشيخ سليم بعمارة"، فـ "مكتبة الشيخ إبراهيم بن بكير ببني يزقن"، "مكتبة بشاغا أولاد نايل سي بلقاسم بن لحرش بالجلفة". غير أن أهم ما قام به في هذا الشأن هو تصنيفه لمكتبات زوايا عين ماضي وتماسين وورقلة، عجاجةوالهامل" لِما لهذه المكتبات من مكانة كبيرة في حفظ المخطوطات التي لا يزال معظمها غير معروف أو غير مصنّف.

وعليه، سيكون لنا وقفة مع هذا النموذج.

- **أقسام الكتاب ومحتوياته:**[25]

يقع الكتاب في 86 صفحة عدا صفحات العنوان والغلاف وما شابههما، صدّره بمقدمة مختصرة شرح الهدف من إنجاز الفهرس.

يتكوّن الفهرس من 231 مخطوطا مُقسّما إلى ثمانية أجزاء، ضمّن كل جزء مخطوطات مكتبة زاوية بعينها.

يشمل الجزء الأول مخطوطات زاوية عين ماضي وكان عددها ثمانية. وقد سار "باصي" في منهجه، بعرض عناوين المخطوطات في لغتها الأصلية (العربية) ثم يردف بتعليق أو ملاحظة عامة كانت أو خاصة، وبذلك كان أقرب إلى ما يُتّبع في البيبليوغرافيات التحليلية والنقدية..

- الجزء الثاني وقد خصّه لمخطوطات تماسين وكان عددها 12 مخطوطا.
- أما الجزء الثالث من الكتاب فقد أحصى فيه المخطوطات ذات الصلة بورقلة، وقد كان عددها 49 مخطوطا.
- الجزء الرابع، وقد خصّصه باصي لتحليل ونقد مخطوطات ورقلة ذاتها، مع التفصيل في بعض القضايا مثل مصادر المخطوطات وحالتها العامة.
- الجزء الخامس: يتضمّن مخطوطات بني إبراهيم، مستهلا هذا الجزء بالتأريخ لسلالة بني إبراهيم والقبائل التي عاصرتها.
- الجزء السادس: مكتبة بني وقين

ومثلما تحدّث في الأجزاء السالفة عن أصول وتاريخ العائلات التي كانت وراء تكوين الرّصيد الوثائقي من المخطوطات، فإنّه لم يشذ هذه المرة في هذا الجزء، بحيث درس بني وقين ومناطق سكناهم بشيء من التفصيل؛ مع دراسة تحليلية ونقدية لمخطوطاتهم البالغة 37 مخطوطا.

---

25 René Basset, les manuscrits arabes des bibliothèques de Zaouïas de Ain-Madhi et de Tamacine, de Ouarglaet de Adjadja. Alger : imprimerie Fontana,1885.

- أما الجزء السابع فقد تحدّث فيه عن مكتبة بني سيسين وتبعات مشاركتهم في ثورة 1871م.دون أن ينسى إحصاء ودراسة ما كان لديهم من مخطوطات قيّمة، والبالغ عددها 25 مخطوطا.
- في الجزء الثامن من الكتاب، يقوم بإحصاء وتحليل مخطوطات " عجاجة" البالغ عددها المائة.

وفي ختام فهرسه، يقدّم "باصي" تحليلا موثقا ومطوّلا عن أحوال منطقة ورقلة، محاولا التأكيد على أن قبول الشيخ أحمد علّه وجيه المنطقة الدخول في السّلم مع السلطات، بعد القلاقل و "المشاكل" التي سبقت جنوحه نحو السّلم، كانت نتيجته أن تمّ تعيينه خليفة ورقلة وما يتبع ذلك من امتيازات..

- **الفهرس العام لمخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية لإدمون فانيان:(1846-1931** E. Fagnan)

يكتسي هذا الفهرس أو هذه البيبليوغرافية أهمية علمية وتاريخية بالغة في مجال المخطوطات الجزائرية، بحيث يعتبر المثال الحي لاهتمام الجزائريين بالعلم والثقافة العربية الإسلامية، وبذل العطاءات من أجل اقتناء المخطوطات العلمية النادرة.

عمل "فانيان" قبل توليه إدارة مكتبة الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أستاذا للغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة الجزائر. ولما عهدت إليه السلطات الاستعمارية إدارة المكتبة، عمل على وضع فهرس عام لمحتوياتها من مخطوطات عربية، أسفر في سنة 1893 على ظهور عمل ضخم يقع في 690 صفحة، تم طبعه بباريس من نفس السنة، به جرد لعناوين مخطوطات بأسماء مؤلفيها، يبلغ عددها 1829، قدم له مؤلفه بمقدمة موجزة، يشرح فيها بعض ظروف تجميع المخطوطات في المكتبة وبين أرقامها في الفهرس، مع الإشارة إلى أرقام المخطوطات المفقودة. ثم انتهى بإنجاز فهرس مفصل عن موضوعات المخطوطات، وكشاف هجائي عام يحتوي أسماء مؤلفي المخطوطات وأسماء الأماكن والموضوعات....[26]

يعترف "فانيان" في مقدمة الفهرس بأن ظروف الاجتياح العسكري على المدن القرى الجزائرية غداة الاحتلال قد حالت دون تجميع عدد أكبر من المخطوطات. ويكاد "فانيان" يصبّ جام غضبه في ذلك

[26] E.Fagnan, catalogue général des manuscrits de la bibliothèque d'Alger, 2ème éd. Bibliothèque nationale d'Algérie 1995,680p.

على "بربروجر"[27] الذي لم يتمكن حسبه من تجميع كل محتويات المكتبات الخاصة في قسنطينة (مكتبة الفكون مثلا) حتى وإن استدعى الأمر شراءها من جنود وضباط الاحتلال، الذين إما باعوها لمجمّعي المخطوطات بفرنسا، أو قاموا بترحيلها معهم إلى مدنهم وقراهم. وفي هذا الصدد يعترف "إسكر ESQUER" وهو أحد مدراء المكتبة أن " العديد من المكتبات الفرنسية تمتلك مجموعات من المخطوطات مصدرها مدينة قسنطينة، وقد كانت فيما يبدو هدايا من ضباط الحملة على قسنطينة".[28]

أنا عن مصادر المخطوطات التي يحتويها هذا الفهرس، فيذهب "فانيان" إلى الاعتقاد بأن أغلبها مجهول المصدر. وما تمّ التعرف على خزائنه الأصلية قد جلب من مكتبات قسنطينة الخاصة (العائلات) والعامة (المساجد) غير انه يعتقد جازما بان ما وصل مكتبة الجزائر (التي اسست بعد الاحتلال مباشرة) لا يعدو أن يكون النزر اليسير، مما تم جمعه أو ما كان موجودا فعلا في مكتبات المنطقة والمدن الجزائرية الأخرى، إذ يعترف أن قسنطينة كانت من أهم المدن الجزائرية من الناحية العلمية والثقافية خلال الربع الأول من القرن التاسع عشرة.

ثم يشير "فانيان" إلى أمكنة أخرى، قد تكون مصدر بعض المخطوطات منها منطقة القبائل التي استبيحت بعد ثورة الشيخ حداد...

هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الموضوعات التي طرقتها هذه المخطوطات فإنها تشمل جميع المعارف والعلوم التي كان الجزائريون والمسلمون عامة يهتمون بها، وهي التاريخ (السيرة وغيرها) وعلوم القرآن والحديث والتصوف والفلك وغيرها....

---

[27] أدريان بربروجر اشتغل في بداية الأمر السكرتير الخاص للجنرال "كلوزل– Clauzel " قائد حملة قسنطينة، وسكرتيرا للعديد من الضباط، ثم عيّن عضوا الجمعية التاريخية الجزائرية التي كانت وراء تأسيس المجلات العلمية مثل المجلة الإفريقية. وبتاريخ 1835 أسس بربروجر مكتبة الجزائر. **للمزيد من المعلومات** راجع:

- E.Watbled « expédition et prise de Constantine » in Revue Africaine n°80, vol. 14, année1870, p.200.

[28] F. laloé, op.cit., p.107

ومهما تكن نقائص هذا الفهرس، إلا أنه يعدّ أداة بحث أساسية بالنسبة للباحثين والمحققين، لأنه يشمل على العديد من المعلومات حول المخطوطات، ليس فقط من ذات المصادر المذكورة بل أيضا من مصادر أخرى يمكن أن تكون في جهات أخرى من الجزائر أو خارجها..

- **خاتمة**

وفي نهاية هذا الطواف حول بعض الفهارس والبيليوغارفيات التي أنجزها علماء الحواضر الإسلامية والمستشرقون الأوروبيون وغيرهم وظروف تحقيقها، لا بد من الإقرار بأنها أمست مع مرور الزمن أدوات مهمة في يد الباحثين والمحققين، من أجل سبر أغوار المخطوط عموما والمخطوط الجزائري خصوصا. ذلك أن ما تكتنزه هذه الأعمال من معلومات حول المؤلفين وأعمالهم، يُعد ثروة لا يستطيع الباحثون والمحققون المرور بجانبها دون الاستفادة منها في بحوثهم وتحقيقاتهم.

أضف إلى ذلك، إن المخزون من المخطوطات بالجزائر، سواء من تأليف أصحاب الأرض أو من غيرها وحسب، ليس في المكتبات الحكومية- وإن كان جزء منها في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة وأماكن أخرى-وإنما في خزانات العائلات والزوايا في كل أنحاء البلاد والجنوب منه على وجه الخصوص. فإذا علمنا أن عدد الزوايا بالجزائر حسب إحصائيات 2003 يبلغ 8900 زاوية و35 زاوية تعليمية [29](معاهد تعليمية دينية عليا) وأن بزوايا منطقة أدرار وحدها حاليا ما يربو عن 12 ألفا من المخطوطات، بعدما كان يفوق 27 ألفا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، لأدركنا أن أهمية الارتكاز على هذه الفهارس والبيبليوغرافيات كبيرة من أجل التعرّف على أصحاب المخطوطات كتّابا ونسّاخا وسيرهم.

[29]– مسؤول بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، إذاعة الجزائر الثقافية، 23 مايو، 2008.

– قائمة المصادر والمراجع:

المؤلفات:

– الإشبيلي، ابن خير، (1997)، فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق فرنسشكة قدارة. ط.3، القاهرة، مكتبة الخانجي.

– برجرستراسر، جوتهلف،(1828) ، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، إعداد وتقديم محمد حمدي البكري، دار المريخ للنشر، الرياض.

– ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (1966)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ج1، الدار المصرية للتّأليف والترجمة، القاهرة.

– خليفة، حاجي، (د .ت)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تقديم آية الله العظمي السيد شهاب الدين النجفي، مكتبة المثنى، بغداد.

– خليفة، شعبان عبد العزيز، 1996))، البيبليوغرافيا أو علم الكتاب: دراسة في أصول النظرية البيبليوغرافية وتطبيقاتها، الدار المصرية اللّبنانية، القاهرة.

– ابن خلدون، عبد الرحمان، (1959)، كتاب العبر، ج7، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

– ابن خلدون، عبد الرّحمان، (1981)، المقدمة، ج1، دار العودة، بيروت.

– الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، (1981)، عنوان الدّراية، تحقيق رابح بنوار، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

– سعد الله، أبو القاسم، ((1998، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

– الزركلي، خير الدين الأعلام، (د.ت)، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ط2. د. م.

الدوريات:

– الأهواني، عبد العزيز، 1955))، "كتب برامج العلماء في الأندلس" مجلة معهد المخطوطات العربية"، القاهرة، جامعة الدول العربية، المجلد الأول، الجزء الأول، مايو، ص.ص:85-98.

Livres

- Basset, René, (1885), les manuscrits arabes des bibliothèques de Zaouïas de Ain-Madhi et de Tamacine, de Ouargla et de Adjadja, imprimerie Fontana, Alger.

Fagnan, E., (1995), catalogue général des manuscrits de la bibliothèque d'Alger, 2ème éd. Bibliothèque nationale d'Algérie, Alger.

Périodiques

- LALOE Francis, (1925) « autour de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie » Revue africaine, Alger, Nº 66, p.p. :98-108.

- Watbled, E, (1870), « expédition et prise de Constantine » Revue Africaine Alger, n°80, vol. 14.